

التطبيقات التعليمية لنظريات الاكتساب اللغوي
Les Applications Didactiques des Théories
de l'Acquisition Linguistique

د.أحمد سعدي

كلية الآداب والفنون

جامعة حسيبة بن بوعلي-الشلف- الجزائر

Email:lokmanesadi@outlook.fr

ملخص:

ترتكز التعليمية اللغوية على الاكتساب الطبيعي والبسيط للغة الأم. وتبحث عن الاستفادة من النظريات المختلفة التي تهتم باكتساب اللغة وتعلمها. وقد أصبحت التعليمية اللغوية غنية معرفيا بفضل هذه النظريات التي تتخذها قاعدة للتطبيق في ميدان تعليمية اللغات خاصة. الكلمات المفتاحية: نظريات التعلم; تعليمية اللغات; اللسانيات التطبيقية.

Résumé :

La Didactique des Langues se base sur l'Acquisition naturel et simple de la langue maternelle. Et elle cherche a se profiter de divers Théories qui s'intéressent a l'Acquisition et a l'apprentissage de la Langue. Et la Didactique des langues s'est trouvée rapidement tres riche épistimologiquement grace aces théories utilisées et appliquées comme une base spécialement dans le domaine de la Didactique des langues.

Mots Clefs : théories d'apprentissage; Didactiques des Langues, Linguistique appliquée

مقدمة:

نشأت طروحات ونظريات اكتساب اللغة واشتغالها من خلال محاولة الإجابة عن عدة تساؤلات وتخمينات نذكر

منها:

- 1 - لماذا يكتسب الإنسان اللغة دون الحيوانات؟
- 2 - ما هي العلاقة التي تربط الإنسان باللغة، وخاصة اللغة الأم التي يكتسبها الفرد في طفولته، وهي أول لغة في حياته؟
- 3 - هل يمكن للإنسان أن يمتلك لغات أخرى زيادة على اللغة الأم، وما هو عددها الأقصى الممكن، وبأية كيفية، وهل يكون ذلك ممكنا في كل مراحل الحياة؟
- 4 - هل اكتساب اللغات وتعلمها يشبه اكتساب المعارف والعلوم وتعلمها، أم لاكتساب اللغات وتعلمها خصوصية ما؟

- 5 . هل اكتساب العلوم والمعارف المختلفة يندرج ضمن عملية اكتساب اللغة ويساهم في توسيعها وتعميقها، أم هما منفصلان عن بعضهما البعض ولا علاقة لاكتساب العلم والمعرفة باكتساب اللغة؟
- 6 . ما هي الطرق والكيفيات والعوامل المؤدية إلى تسهيل اكتساب اللغة وتسريع تعلمها ؟
- 7 . هل تعلم اللغات الأجنبية يشبه ويمثل اكتساب اللغة الأم وتعلمها، أم هما مختلفان تمام الاختلاف ؟ إلى غير ذلك من الأسئلة التي تدور في هذا الشأن، وتداولها أطراف مختلفة من فلاسفة، وعلماء النفس، وعلماء الاجتماع.
- 1. خصوصية اكتساب اللغة وتعلمها:**

ينبغي اعتبار ثلاث خصوصيات في هذا المجال هي: خصوصية العملية التعليمية التعلمية بصفة عامة، وخصوصية تعلم اللغة واكتسابها، وخصوصية اللغة في حد ذاتها. إن تعلم اللغة ليس كتعلم العلوم والمعارف الأخرى، لأن اللغة ليست علما بدليل أن المجانين والجهّال والمتخلفين يكتسبون اللغة ويتكلمون بها؛ في حين أن العلم لا يكتسب ولا ينال سوى بالجهد الجهد والدرس المفيد، والعمر المديد. وتعلم اللغة هو كتعلم المشي يكون صعبا وغير ممكن وشبه مستحيل في البداية ثم يصبح مع الزمن الكافي والممارسة الدائمة يوميا مهارة ونعمة وسلوكا آليا معتادا.

وهكذا يكون التعلم لاكتساب جميع المهارات والملكات والكفاءات السلوكية التي تتم بالمران والرياضة والتدريب والممارسة والمعاملة كالسباحة والسياسة وغيرهما. ويبقى لتعلم اللغة واكتسابها خصوصيتها وتفرداها، لأن اللغة مهارة يكتسبها جميع الناس، وغيرها من المهارات والملكات التي تنال بالرياضة والتدريب لا يكتسبها جميع الناس، لأن ظروف تعلمها واكتسابها ليست متوفرة لجميع الناس مثل اللغة. ومتعلم اللغة يحتاج إلى البيئة اللغوية أو إلى معلم اللغة في البداية، للأخذ بيده وإسعافه ومساعدته على تجاوز الصعوبات وتخطي المراحل الابتدائية الأولى الترويضية بنجاح. ويمكننا تسمية المرحلة التعليمية الابتدائية لاكتساب اللغة بمرحلة الترويض اللغوي، وهي المرحلة الأساسية في اكتساب اللغة وتعلمها. وفي هذه المرحلة كلما بذل متعلم اللغة المنشودة مجهودا أو تحرك، أو قام بنشاط لغوي ما استحسنت ذلك منه، ولقي من التشجيع والمعاونة والتوجيه نحو تنمية قدراته اللغوية مهما أخطأ أو استصعب النطق الصحيح المقبول، أو استشكل عليه الفهم، أو ثقلت عليه الكتابة. وينبغي ألا تتوقف الأنشطة التعليمية اللغوية لاكتساب اللغة وامتلاكها، إذ "تعني الأنشطة التعليمية كل النشاطات التي يعمل المنهج على تدريب التلاميذ عليها بما تحتويه من مواد تعليمية ومهارات ذهنية فكرية، وخبرات يدوية عملية، وأعمال متنوعة صفيّة ولاصفيّة، ومحاولين النظر إليه كوحدة متكاملة تتناسب مع حاجات التلميذ ومتطلباته النفسية والعقلية؛ ومع حاجات البيئة الخارجية المتمثلة بالوسط الاجتماعي الذي يحياه التلميذ، والمرتبطة ارتباطا تلازميا مع المستوى الاقتصادي الذي تحياه هذه البيئة، ومع الأسس الفلسفية والروحية التي تسير عليها. ومن هنا ضرورة انفتاح المنهج التعليمي على حاجات البيئة، وتفاعله معها بهدف إعداد التلميذ للحياة. فالمدرسة يجب أن تحتل قلب الحياة، كما يجب أن تدخل الحياة إلى قلب المدرسة. فتتعاقدان في خدمة أهداف تفتح التلميذ وتحضيره للدخول إلى الحياة." (1) فالتعليم مبني أساسا على قاعدة النشاط والتفاعل والتجاوب والتنمية والتطور. والأنشطة اللغوية الصفيّة واللاصفيّة إذا توقفت أو تعطلت يتوقف اكتساب اللغة وتعلمها على الفور.

ولتعليمية اللغات خصوصيات تميزها، وليست كتعليمية المواد الأخرى. يقول طه حسين: " وإذا جاز أن يلحق درس في التاريخ السياسي أو الأدبي على عدد عظيم من المستمعين، على أن يحصل كل واحد ما يستطيع تحصيله مما سمع، فإن ذلك مستحيل استحالة تامة في اللغات. وفي العلوم التجريبية ما يشبهها من مواد الدرس. لأن هذه المواد لا تُعَلَّم للجماعات، وإنما تُعَلَّم للأفراد. أي أن المعلم مضطر إلى أن يتجه إلى التلميذ من حيث هو فرد ليتحقق أنه انتفع من درس اللغة." (2) وهذا لا يعني إطلاقاً أن يكون درس اللغة فردياً، ولكنه يعني بالضرورة أن يخاطب المعلم كل فرد متعلم في المجموعة التي تتعلم في الموقف التعليمي نفسه، أو في المواقف التعليمية كلها، ليتمكن من استنطاقهم جميعاً واستدراجهم كلهم إلى التعبير اللغوي المنشود. وهذا يتطلب بيداغوجياً، أن تجري تعليمية اللغة في صفوف تربوية محدودة العدد، شبيهة بالفريق، أو بالمخبر أو الأسرة. وقد جربنا تعليمية اللغة العربية في أقسام يتجاوز عدد أفرادها أو يقاربون الأربعين متعلماً، ولا يتمكن أي معلم في هذه الحالة أن يخاطبهم فرداً فرداً، أو أن يسمع منهم القراءة، أو أن يراقب أعمالهم ويصححها. وفي هذه الحالة أيضاً لا ينتفع جميع تلاميذ القسم وطلبتة من درس اللغة والأدب.

يندرج تعليم اللغة في إطار العلوم التجريبية والعلوم التطبيقية التي تركز على الحركة والممارسة والنشاط. وتفرض إقامة التواصل البيداغوجي الدائم المستمر بين المعلم والمتعلم يومياً وجهاً لوجه. وهذا التواصل اللغوي البيداغوجي يتخذ أشكالاً متنوعة توظف كلها لمساعدة المتعلم على اكتساب اللغة واستعمالها استعمالاً مستحسنًا في الأغراض الوظيفية والإبداعية. وللتأكيد على ضرورة التركيز على الأفراد كأفراد في تعليمية اللغات وليس على المجموعة باعتبارها مجموعة. يقول طه حسين مرة أخرى: "

فالتعليم كله في هذه المدارس يجب أن يتجه إلى الفرد لا إلى الجماعة، وإلى التلميذ لا إلى الفصل. لأن الصبي في هذه المدارس لم يبلغ بعد من القوة والنضج أن يعتمد على نفسه اعتماداً تاماً. وأن يستغني بجهد الخاص عن تعهد المعلم له بالنصيحة والتقويم والإرشاد." (3)

ومن أسباب البطء والإخفاق في اكتساب اللغة وتعلمها إهمال المتعلم وقلة الاهتمام والعناية به وتحريكه وتشغيله وتجريبه واختباره والانشغال عنه بدلاً من الاشتغال به، سواء في الأسرة أو في المحيط التربوي التعليمي. خصوصاً إذا كان لا يعي الوضعية الحرجة التي هو فيها، أو كان يائسا مستسلماً لمصيره.

تعليمية اللغات شأن تطبيقي علاجي، وعملية تجريبية اختبارية. وكثير من معلمي اللغات وأساتذتها لا يفرقون بين تعليمية اللغات وتعليمية المواد، ويخضعون التعليم برمته إلى مقارنة منهجية واحدة، وهذا شبيه بأن يتلقى درس الرياضة البدنية داخل القسم على الطاولات والكراسي، وعلى السبورة فقط. وهكذا يتم التوجه إلى الجماعة المتعلمة بوصفها جماعة عن طريق الخطاب الأحادي الفوقي، ولا يتم الاتجاه إليها فرداً فرداً لتشخيص حالات النمو والتطور اللغوي لدى المتعلمين حالة بحالة، وفرداً بفرد، كما يفعل الطبيب المعالج. فمثل هؤلاء لا يعرفون هذه الحقيقة أو يهملونها، ويحملون المتعلم وحده مسؤولية إخفاقه أو ضعفه اللغوي. وينتظرون منه أن يتجاوز وحده هذا الضعف دون مد يد العون له. وإذا وجدنا مدارس تطرد الطلبة والتلاميذ وتمنحهم الإنذارات والتوبيخات وأنواع العقوبات، أو تحيلهم على المجلس التأديبي، تبريراً لطردهم

وتسريهم المدرسي، فلا نعجب إذا وجدنا مستشفى يطرد المرضى ويؤنبهم ويعذبهم لأنهم لم يداووا أنفسهم بأنفسهم. ينبغي أن تكون عند معلم اللغة جميع الحلول والوسائل والمساعدات، وإلا فإنه لا يستطيع أن يعلم، كما ينبغي أن تكون عند الطبيب جميع الحلول والوسائل والمساعدات حتى يستطيع أن يعالج ويداوي. اللغة كالبحر، وتعلمها هو كتعلم السباحة وهي عملية لا بد فيها من مرافقة وإشراف السباح المعلم للسباح المتعلم في الماء لإسعافه أثناء عملية التعلم وتشجيعه وتوجيهه نحو الصواب. وإلا فإنه سيغرق، وقد تصيبه الصدمة، وتملكه العقدة فيخاف من معاودة المحاولة مرة أخرى بعد الخطأ والإخفاق في المراحل الأولى. لأنه يظن أنه سوف يعيد نفس الخطأ وتواجهه المشكلات نفسها.

وقد سار موضوع اكتساب اللغة في اتجاهين اثنين، يراهما أنصار كل اتجاه متناقضين. ولكنهما في الواقع متكاملان ومتعاونان، وهما الاتجاه الطبيعي الاجتماعي، والاتجاه التدريبي التعليمي. والنظريات اللسانية المتعلقة باكتساب اللغة وتعلمها تدور كلها في فلك أحد هذين الاتجاهين. وقد شارك في الاهتمام بنظريات اكتساب اللغة وتعلمها علماء اللغة الوصفيون والتطبيقيون، وعلماء النفس، وعلماء الاجتماع، والفلاسفة، والتعليميون، والتربويون، بصفة عامة. يقول عبد الكريم الخولي: " إن نظريات تعليم اللغة تختلف فيما بينها حول تفسير اكتساب اللغة بالرغم من اتفاق أصحابها على أن هذا الاكتساب حقيقة واقعة من حيث حقيقته ومراحله. وتبين أن أصحاب كل نظرية اعتمدوا على نقد نظرية ونسف أخرى، وفق وجهة نظر ما. غير أن المتمعن في هذه النظريات وما انبثق عنها من مذاهب وآراء، يدرك أنه يصعب الاعتماد على نظرية واحدة، ورأي واحد، لتفسير اكتساب اللغة. كما لا تخلو نظرية من عيوب. " (4) ونحن نحاول تناول أكبر عدد ممكن منها بالدراسة، لنأخذ من كل واحدة منها ما يمكن أن يفيد في تعليمية اللغة واكتسابها. ولنسأنا أبدا بصدد البحث من أجل تبني نظرية من النظريات أو الانحياز إليها.

وتهتم كل الأمم المتحضرة بتعلم وتعليم اللغة التي لها عندهم خصوصية ما، وينفقون عليها، ويخططون لها، ويخصصون لخدمتها وتعليمها الميزانيات، وينشؤون لها المدارس والمؤسسات. واخترعت لها علما خاصا يسمى التعليمية أو (الديداكتيك) أي علم تعليم وتعلم اللغة ليكون متميزا عن تعليم المواد. وقد لوحظ جدية وفاعلية التعليمية فلم يجدوا بأسا في تعميمها، ليكون تعليم المواد كتعليم اللغة كله علما مدروسا بدقة ومضبوطا. ولكن مع ملاحظة الفرق بين تعليمية اللغة وتعليمية المواد.

يقول عبده الراجحي وهو يتحدث عن أهمية وألوية تعليمية اللغة في الأمم المتحضرة ذات السيادة والتقدم والعزة: " إن تعليم اللغة علم له حدوده وله مصادره، وله أساليبه الفنية. وإن الأمم التي تهتم بتعليم لغتها لأبنائها ولغيرهم، لا تألو جهدا في تطوير أنظمة هذا التعليم وتحسينه... خلاصة الأمر في ذلك ان تعليم اللغة عند هذه الأمم ميدان مفعم بالحياة والنشاط. وهو لا يتوقف عند حد، إنما هو يتقدم كل يوم خطوة إلى أمام. لأنه ينظر فيما بين يديه: يراجع أو يختبره، ويفيد من أي جهد يتصل بموضوعه بسبب. وهو في ذلك لا يبتعد لحظة عن أصول العلم. " (5) لقد صار التعليم كله علما. تعليم اللغات علم، وتعليم العلوم علم. وهما علما مختلفان في الموضوع الذي يفرض الاختلاف في المنهج والأسلوب والطريقة والوسيلة والزمن. ويتميز علم تعليم اللغة بأنه علم سلوكي تحريكي مفعم بالحياة والنشاط كالرياضة البدنية. يتوجه إلى كل أفراد الفريق لإخراجهم جميعا وفردا فردا من عزلتهم وعجزهم وضعفهم

وقصورهم. وبالنسبة للتعليمية اللغوية فإنها تجعل من أولوياتها الإستراتيجية مساعدة المتعلم على الخروج من حالات العي والقصور والحبسة والعيوب والأخطاء اللغوية، إلى الكفاءات والملكات اللغوية التي تسمح له بالاستعمال المقبول للغة المنشودة في الأغراض المنشودة.

ولا يوجد مجال اكتظت فيه النظريات متقاربة أو متضاربة، كمجال اكتساب اللغة وتعلمها. لأن هذا الموضوع يشغل الجميع، والحاجة ماسة إليه، سواء في فهم كيفية اكتساب اللغة، أو في معرفة طرائق تعلم اللغة واستعمالها. وتدرج نظريات الاكتساب اللغوي ضمن ثلاث مجموعات هي: نظريات علم النفس النمائي، ونظريات التعلم، والنظريات اللغوية. (6) وتتعاون كلها وتعمل متضافرة لتشكل أرضية معرفية للتعليمية اللغوية.

2. نظريات التعلم اللغوي النفسية:

اهتم علماء النفس بنظريات التعلم، وهي عندهم كثيرة ومتنوعة، ولكن ما يهتم منها باكتساب اللغة وتعلمها نظريتان فقط تبناهما اللسانيون والتعليميون المعاصرون واستثمروهما تطبيقيا في تعليمية اللغات خاصة، وفي العملية التعليمية بصفة عامة. وهاتان النظريتان هما النظرية السلوكية والنظرية المعرفية. وقد فتح الباب واسعا لهاتين النظريتين وفسح لهما المجال في اللسانيات التطبيقية في موضوع تعلم اللغة وتعليمها.

1.2. النظرية السلوكية: نستطيع وصفها بالنظرية الأم في التعلم لأنها أسبق النظريات وأقدمها وأنجعها على الإطلاق، وأكثرها فاعلية، رغم المآخذ والانتقادات الموجهة إليها والسلبيات والنقائص والعيوب التي تحيط بها، خاصة فيما يتعلق بأسلوب الشدة والعنف واستعمال العقاب والإكراه والإلزام القصري في معاملة المتعلمين، واعتبار المعلم محور العملية التعليمية التعليمية. وكذلك في قياسها تعليم الإنسان على تدريب الحيوان.

وعلماء النفس قد أجروا تجاربهم العملية على الحيوان لتعديل السلوك الحركي بنجاح معتبر، وطبقوا هذه النظرية في المدارس النظامية العسكرية وشبه العسكرية والمدنية التي تفرض على المتعلم الاستجابة والسمع والطاعة وتنفيذ الأوامر الفوقية دون جدال أو مناقشة للوصول إلى الهدف المنشود.. يقول محمد التوتحي: "تركز هذه النظرية على ما يستلزمه استعمال اللغة في الاتصال. وتعطي اهتمامها للجانب الممكن ملاحظته علانية. وهي تشكك في المصطلحات الذهنية كالعقل والتصور، وتقلص من دور القرائن والقدرات الفطرية. لأن اتجاهها آلي أو حتمي. لأنها ترى أن كل شيء في العالم محكوم بقوانين الطبيعة. ومن أعلامها بلومفيلد وواطسون." (7) تتصور هذه النظرية أن التعلم حسابات ونتائج صحيحة أو غير صحيحة، وهو عملية ميكانيكية آلية، والخطأ في النتيجة هو خطأ في الحسابات والتقديرية اللازمة. وترى هذه النظرية أن اللغة عادات يكتسبها الإنسان من البيئة، أو من المدرسة بشكل إرادي أو غير إرادي. ويعتبر الكلام واستعمال اللغة عندها سلوكا لغويا مثله مثل أي سلوك حركي آخر. ويكون اكتساب اللغة وتعلمها بالاعتماد على الاشتراط الإجرائي بواسطة المثير والاستجابة لدعم التعزيز الملائم عقابا أو ثوابا أو إجراء وسيطا آخر في الوسائل والمحتويات والبيداغوجيا.

2.2. النظرية المعرفية: وفي مقابل النظرية السابقة وكرد فعل لها ظهرت نظرية أخرى هي النظرية المعرفية التي تعيد للإنسان كرامته وللعقل مكانته في العملية التعليمية التعلمية. وتركز النظرية المعرفية على العمليات الذهنية المسؤولة عن الكفاءة اللغوية وقدرة الإنسان على اكتساب اللغة واستعمالها. والنظرية المعرفية في تطبيقاتها التعليمية "تحاول تقديم الأجوبة العقلية عن اكتساب اللغة الأم وتعلم اللغة الثانية. وتحاول تقديم فهم أكثر عمقا وبعدا عن السطحية لأفعال الكلام البشرية. وتحاول التخلص من شكلية وسطحية النظرية السلوكية والمدرسة النيوية المتأثرة بها. وتقدم تصورا جديدا قائما على ثنائية جديدة للغة غير معهودة تقوم على مفهوم البنية السطحية والبنية العميقة، والعلاقة الطبيعية التلقائية بينهما." (8) وقد جاءت هذه النظرية لتكمل المشروع النظري في تعليمية اللغات، والنظرية السلوكية وضعت الأساس النظري باكتشافها البنية السطحية واعتمادها على العمليات الحسية الظاهرة، والنظرية المعرفية تعمقت في تفسير الموضوع. ولولا عقل الإنسان ومعرفته بقيمة اللغة ما كان له أي اهتمام بها. فالحيوان يكتسب مهارات يتعلمها عندما يدرسه الإنسان ويروضه عليها، ولا يمكننا القول أن الحيوان يعرفها رغم تأديته لها بكفاءة عالية من الناحية السلوكية، فالحيوان لا ينسب إليه إنجاز ولا معرفة لأن هذين من خصائص الإنسان وحده. ويعتبر نعوم شومسكي كاجبا لجماح النظرية السلوكية وتطرفها التربوي والتعليمي إذ " في عام 1957 ظهر في الولايات المتحدة الأمريكية كتيب صغير الحجم، عظيم الأثر، بقلم عالم لغة من أتباع مدرسة القواعد النيوية. اسمه: نعوم شومسكي. أتى بنظرية جديدة تختلف اختلافا كاملا عن سابقتها. بعد ذلك بعامين ظهرت مقالة تاريخية نشرها الكاتب نفسه في مجلة علمية استطاعت أن تقوّض نظرية بلومفيلد وسكينر والنظرية النيوية من أساسها، بحيث لم تقم لها قائمة بعد ذلك." (9) والتعصب للنظرية المعرفية كذلك تطرف وغلو بجانب للصواب. لأن التجارب والتطبيقات التعليمية تؤكد على أن الواحدة منهما للآخرى، هي كاليد اليمنى لليسرى. وحيثما تعجز النظرية السلوكية تنجز النظرية المعرفية. وهما بالتالي نظريتان متكاملتان ولا تنقض إحداها الأخرى ولا تقوضها.

وإذا كانت النظرية السلوكية قد نالت مشروعية التطبيق، فإن النظرية المعرفية قد حازت مشروعية التنظير والتفسير والتفكير والتقدير والتصوير. ولذلك " نالت هذه النظرية الجديدة من اهتمام علماء اللغة والتفاهم حولها، ومتابعيهم وتطويرهم إياها، ما لم تنله أي نظرية سابقة أو لاحقة. وقد امتد هذا الاهتمام منذ صدور الكتاب الأول المذكور آنفا والذي أتبعه المؤلف بكتاب آخر طوّر فيه النظرية، والذي تلتته عشرات الكتب ومئات المقالات باقلام مختلفة حتى عصرنا الحاضر." (10) وهكذا صارت تعليمية اللغة عملية واعية، لها نظرية شاملة بناء على منهجها البرغماتي، وتستثمر كل ما عساه أن يفيدها من النظريات ولا تتبنى نظرية واحدة بعينها.

والإنسان عندما يتعلم اللغة أو غيرها يعرف ويدرك ماذا يتعلم ولماذا يتعلم وكيف يتعلم وهذا يساعده كثيرا في عمليات التعلم التي يتلقاها أو التي يقوم بها ذاتيا. ولا بد من الإشارة في هذا الصدد إلى قضية معرفية قديمة مشهورة باسم "مشكلة أفلاطون". وقد تناول الفلاسفة منذ القديم نظرية المعرفة بالنظر والتحليل، وبينوا علاقتها بالعقل والبيئة. واختلفوا في أيهما يعتبر مصدرا للمعرفة. وطال النقاش والجدال في هذه المسألة المتعلقة بمجالات العلم والمعرفة، ومن بينها المجال الأخلاقي واللغوي.

وقد وقف أفلاطون محتارا رغم كونه سلوكيا بالدرجة الأولى، ولكنه وقع في مشكلة نظرية تعزز دور العقل في اكتساب وإنتاج المعرفة. وقد استدل على ذلك بظاهرة ثنائية هي فقر المنبه والغنى المعرفي. يقول الدكتور عبد القادر الفاسي الفهري: مشكل أفلاطون هو الآتي: لماذا نعرف كمًا هائلًا من الأشياء، مع أن تجربتنا محدودة؟ وقد صاغ المشكل برتراند رسل في التساؤل التالي: ما الذي يجعل المخلوقات البشرية التي لها اتصال قصير وشخصي ومحدود بالعالم، قادرة مع هذا على معرفة الكم الذي تعرفه؟ ومثيل هذا التساؤل مشكل فقر المنبه: فالمتعلم للغة لا يواجه في محيطه إلا تجربة محدودة، ومع ذلك فهو يتوصل إلى معرفة كل خصائصها. ⁽¹¹⁾ وقد اعتمد أفلاطون على فرضية اعتبرها من المسلمات وهي بالفعل من المسلمات واسمها: فقر المنبه والغنى المعرفي. وقد يخضع الناس لنفس المنبهات وتكون معرفتهم المستنتجة منها واستجاباتهم لها متفاوتة ومتباينة. فالعلاقة بين المنبه والمعرفة ليست متكافئة ولا متساوية. فالإنسان قد يعرف أشياء كثيرة لم يتعلمها من أحد. وهذه الظاهرة في الواقع ليست مشكلة، لأنها راجعة إلى ذكاء الفرد وسرعته الذهنية وقدرته على الاستنتاج والاستنباط، كما ترجع إلى غنى البيئة أو فقرها.

والناس متفاوتون في درجة الذكاء، فمنهم من يتعلم ويتكلم بسرعة ومنهم من يحتاج إلى وقت أطول نسيًا، ومنه أقوى وأقوم وأدوم. واللغة لا تسمع كلها، ولا تتعلم كلها، ولا تستعمل كلها. وهي متشابهة في الصيغ النحوية والصيغ الصرفية. ولها قواعد نموذجية ثابتة تسمح للإنسان بصياغة كلمات وعبارات جديدة لم يسمعها من قبل تسمح بها قواعد اللغة وفق القواعد التي يعرفها. وقد يصوغها غيره أيضا ولم يسمعها احدهم من أحد، ولكنها ممكنة لا تتطلب سوى معرفة القاعدة للصياغة وفقها.

وقد قام شومسكي والمعرفيون بحل هذه المشكلة التي حيرت أفلاطون. فالعقل قادر على القياس والإبداع، ولا يحتاج دائما إلى المنبه الخارجي. والمنبه الخارجي ليس هو كل شيء في مسائل المعرفة اللغوية والعلمية. وقد جاء شومسكي بالنظرية التحويلية التوليدية وهي نظرية عقلية ذهنية ترى أن العقل يستثمر المنبهات، ويولد منها معرفة جديدة ويجولها إلى معطيات جديدة في اللغة والمعرفة والسلوك بصفة عامة. وليست المعرفة انعكاسات شرطية لمنبهات خارجية.

3. نظريات تعلم اللغات الأجنبية:

يدعي كثير من الناس امتلاك وإتقان لغة أجنبية ما كالفرنسية أو الإنجليزية أو الألمانية، أو الإسبانية، أو الروسية، أو حتى الصينية، من اللغات العالمية الكبرى. وبعضهم يصرح أنه يتقن خمس لغات أجنبية أو أكثر. ولكن هؤلاء في الحقيقة لا يملكون القدرة على التعبير بهذه اللغات التي يزعمون معرفتها ولم يستعملوها أبدا في حياتهم اليومية لا نطقا ولا كتابة. ربما كانوا يعرفون بعض القواعد النحوية وبعض الكلمات، وربما كانوا يستطيعون التعبير بصعوبة بواسطة هذه اللغات ويرتكبون الأخطاء اللغوية المتنوعة. وهذا يدل على عدم كفايتهم اللغوية وعدم اكتمال عملية الاكتساب والتعلم. وقد توقفوا عند المراحل الابتدائية. وهؤلاء هم كمن يدعي حفظ القرآن الكريم، فإذا اختبر وطلب منه قراءة سورة من الطوال أو من المفصل، تلعثم وتعطل، لأنه لم يحفظ جيدا، أو حفظ ونسي ولم يراجع. والناس في الغالب يتفخرون بمثل هذه الأمور وينسبونها لأنفسهم من باب المباهاة لا غير. ومتعلم اللغة إن لم يكن في الاقتدار والكفاءة كعلمها أو كأحد أبنائها فهو لم يبرح أحد المستويات الدراسية الترويضية في تعليمية اللغات.

وبعض الناس يشترطون أن تكون اللغة الثانية أو اللغة الأجنبية راقية مكتملة، لا ترى فيها عوجا ولا أمثا، كلغة الكتاب والأدباء والصحافيين والعلماء والمعلمين. ولكن بعض المجالات الوظيفية لا تتطلب مستوى لغويا عاليا. واكتساب اللغة مستويات. وعندما يكتسب الطفل اللغة الأم يكون قد اكتسب اللغة العامة المشتركة العادية. وإذا لم يتعلم فسوف يبقى يزاوّل اللغة المشتركة العادية ولكنها تختلف اختلافا نوعيا عن لغة الطفولة والشباب بسبب النضج والتقدم في السن. أما اللغة العالية أو لغة التخصص، فليست لغة طبيعية، وإنما هي لغة صناعية، تكتسب بالتعلم، وتختلف وتتنوع باختلاف العقول والعلوم والمعارف. وقد تعددت النظريات المتعلقة بتعلم اللغة الأجنبية. (12) نلخص بعضها في الجدول التالي:

رقم	النظرية	أهم مبادئها
1	نظرية التطابق	ترى أن تعلم اللغة الأجنبية واكتسابها يمر بنفس المراحل والأطوار التي يمر بها اكتساب اللغة الأم. وليس للغة الأم أي تأثير في تعلم اللغة الأجنبية.
2	نظرية التباين	تعتمد على التقابل والاختلاف بين اللغة الأم واللغة الأجنبية المنشودة، لمعرفة وجوه التشابه ووجوه الاختلاف بينهما. وتستفيد من المقابلة بين اللغتين في اكتساب وتعلم اللغة الأجنبية. وقد نشأ لهذا الغرض علم اللغة التبايني .
3	نظرية تحليل الأخطاء.	تستثمر الأخطاء التي يقع فيها متعلم اللغة الأجنبية، لأن بعضها يعود إلى تأثير وهيمنة اللغة الأم أو اللغة الثانية، وبعضها الآخر له أسباب مختلفة.
4	نظرية الجهاز الهابط	تهتم باللغة التواصلية السهلة البسيطة، عن طريق الاحتكاك المباشر. أو عن طريق تعلم قواعد اللغة الأجنبية العمومية التي بها يتم التمكن من إقامة التواصل فيما بعد. وهو ما يعرف بنظرية النحو الوظيفي واللغة العادية أو اللغة الوظيفية.
5	نظرية اللغة المرحلية	ترى أن لغة المتعلم هي دائما لغة مرحلية وانتقالية، وتحدد نوعيتها بحسب الأغراض التي يتم تعلمها من أجلها أو بحسب لغة التعليم ودرجاته ومستوياته المرحلية. تدعو هذه النظرية إلى تعلم اللغة لأغراض محددة ومحدودة، والتركيز على المهارات التي يحتاج إليها المتعلم فقط .
6	نظرية اللغة الأم	ترى أن التعليم الصحيح والسريع والناجح والفعال ينبغي أن يكون باللغة الأم فقط وليس باللغة الثانية أو اللغة الأجنبية التي قد تكون لغة مرحلية تعرقل عملية التعلم. واللغة الأم هي وحدها المؤهلة لكي تكون لغة للتعليم الناجح.
7	نظرية اللغة الوطنية	يتبنى أصحابها إلزامية تعليم وتعلم اللغة الوطنية الأولى لأنها هي اللغة الرسمية التي ينبغي احترامها بقوة القانون وبالروح الوطنية وهي لغة التعليم والإدارة والكتابة. وهي اللغة الرسمية في الغالب .
8	نظرية اللغة الحية	يرى أصحاب هذا الاتجاه أن اللغة التي ينبغي تعلمها واكتسابها واتخاذها لغة للتعليم هي إحدى اللغات العالمية الحية ولو كانت لغة أجنبية. وهي التي يحتاج إليها الفرد والمجتمع والدولة .

9	نظرية التسوية	ترى أن اللغات متساوية لا تفاوت ولا تفاضل بينها. ولكن يقع التفاوت والتفاضل في المضمون المعرفي والعلمي وليس في اللغة في حد ذاتها.
10	نظرية اللغة الممتازة	وهي نظرية عنصرية متعصبة ترى أن لغة ما هي أفضل اللغات وأرقاها وأجدرها بالخلود وأصلحها للاستعمال في التعليم والعلم والعمل. وغيرها ليست لغات أو هي لهجات أو لغات سوقية مذمومة .

ونظرا لأهمية موضوع اكتساب اللغة وتعلمها بالنسبة للإنسان منذ القدم، فإن التفكير في شأنه لم ينقطع أبدا. يقول محمد الأوراعي: " كلما طرح تعلم اللغة للبحث انقذ عدد من الإشكالات المترابطة بصورة لا تقبل الفصل. من بين ما يتبادر إلى الذهن الطريقة التي ينتهجها المتكلم لمعرفة اللغة واكتسابها. ولتصور شكل هذه الطريقة لا يمكن عزلها، من جهة عن النظرية المعرفية العامة التي تحتويها وتؤطرها، ومن جهة ثانية عن طبيعة الشيء المسمى لغة، بناء على أن تغاير طبائع الأشياء المعروفة المكتسبة يفضي إلى تباين أشكال الطريقة المنضوية إلى نظرية معرفية عامة، بما يجعلها ملائمة لدى الطبيعة المعنية." (13) فكثر النظريات والطرق التعليمية لا يعني أنها كلها ملائمة لكل الحالات "وعندما يكون موضوع التأمل في النظرية المعرفية التي يرجع إليها تحديد المبادئ المقومة للطريقة المتبعة في معرفة اللغة واكتسابها لا سبيل إلى التخلص من النقاش الدائر في كل زمان بين مذهبين متقابلين يتقاسمان جهود المهتمين بالموضوع. يمثل أحدهما فيما يمكن تسميته المذهب الطبيعي الجامع لأنماط فكرية منضوية إلى ما يعرف حاليا بالعقلانية. ويتمثل مقابله فيما قد يسمى المذهب الكسبي على اختلاف صورته المنتمية إلى ما يسمى حاليا المرابية." (14) والمرابية أو الكسبي من المسميات والمصطلحات العربية القديمة للسلوكية، كما أن العقلانية هي المصطلح الفلسفي للمعرفة.

خاتمة:

يعد الاكتساب اللغوي من القضايا المحورية التي تهتم بها اللسانيات التطبيقية في أهم فروعها ألا وهو التعليمية اللغوية التي تركز اهتمامها وبحثها على الكيفية الطبيعية التلقائية العادية في عملية اكتساب اللغة الأم وتعلمها. وتحاول القياس على هذه الكيفية الآلية في عملية اكتساب وتعلم اللغات الأخرى. ومن المؤكد والمسلم به أن البيئة هي العامل الأساسي في كل ما يكتسبه الإنسان في حياته من لغة وأخلاق وثقافة ودين وعلم وعمل وسلوك ومعرفة. والإنسان بصفة عامة كما هو ابن أبيه وامه، فهو كذلك ابن بيئته، وابن لغته الأم. واللغة الأم هي أول لغة يكتسبها الإنسان بسرعة قياسية في مرحلة الطفولة المبكرة عن طريق التواصل السمعي المباشر من البيئة التي ينشأ فيها. وقد يتعلم سلوكيات أخرى أو لغات أخرى مختلفة إذا انتقل/ أو نقل ليعيش في بيئة أخرى مدة كافية تسمح له بالاكتساب والتعلم لا تتجاوز مدة الطفولة الأولى وهي لا تزيد على أربع أو خمس سنوات قياسا على اللغة الأم. فالبيئة هي العامل الأساسي في اكتساب كل أنواع السلوك ومن بينها السلوك اللغوي.

وتحظى النظرية السلوكية بما يؤيدها ويقوي حجتها حين تؤكد على تأثيرات البيئة في العملية التعليمية التعلمية وخاصة في تعليمية اللغات. فاللغة في منظورها ما هي سوى عادات سلوكية يتعلمها المرء من بيئته بواسطة المثير والاستجابة. وقد أثبتت هذه النظرية فاعليتها في تطبيقاتها التعليمية لولا بعض المآخذ القليلة. وقد اكتسبت قيمة عملية تستثمرها اللسانيات

التطبيقية في تعليمية اللغات الأجنبية بالأسلوب السمعي/أو السمعي البصري المباشر عن طريق ما يسمى بالإغماس اللغوي. ويعني وضع متعلم اللغة - كما في اللغة الأم- وسط مجتمع يتكلم اللغة التي يريد تعلمها لمدة كافية. أو بتعويض هذا المجتمع بوضع متعلم اللغة في وسط تعليمي لمدة كافية يخضع فيها للمثيرات والتعزيزات اللازمة.

صحيح أن الاكتساب اللغوي أمر طبيعي إذا توفرت الظروف المناسبة والشروط الضرورية اللازمة. فإذا نقلنا أي شخص إلى أي بلد أجنبي، فإنه يتعلم لغة ذلك البلد في مدة طبيعية معقولة ومقبولة مهما كان سنه ومهما كان جنسه وجنسيته. لأن ظروف التواصل تختم عليه التعاطي اللغوي والتخاطب مع القوم بلسانهم. وهكذا يتعلم تلك اللغة ويكتسبها طبيعياً بواسطة هذا الإغماس المباشر في البيئة اللغوية سواء كان طبيعياً اجتماعياً أو صناعياً تعليمياً عندما يتحقق له السماع الكافي لتحصيل الملكة اللغوية.

أما الإخفاق الملاحظ في تعليمية اللغات فإن سببه المباشر هو ضعف المنبه والمؤثر الذي يؤدي إلى ضعف الاستجابة أو ضعف المردود. وعدم الانتباه لا يتحمل مسؤوليته المتعلم عند السلوكيين وإنما يعود إلى ضعف المنبه. وفسرها كما شئت: إن ضعف المؤثر يمكن أن يتجسد في قلة الوقت، أو فقر المحتوى، أو قلة التمارين، أو قلة الممارسة، أو غياب الدعم والتعزيز. وحسب المنهج المتأثر بالنظرية السلوكية فإن اكتساب اللغة يكون بالاعتیاد والتكرار، ويتم النمو والانتقال من طور إلى طور أحسن منه بالتدرج. وكلما كبر عقل الإنسان وتوسعت ثقافته، وكثر اجتهاده وعمله ونشاطه اللغوي والفكري، فإن ذلك كله ينعكس إيجابياً على لغته وأسلوبه. ولهذا تركز النظرية السلوكية على قوة الممارسة والتمارين المكثفة والتدريب المتواصل.

وبهذه الكيفية يتم اكتساب اللغة وتعلمها حسب المنهج اللساني المتأثر بالنظرية السلوكية وأبرز من يمثله رومان جاكوبسون وأندري مارتيني وغيرهما ممن يرون أن الاكتساب اللغوي لا يتم سوى بإحدى الطريقتين التاليتين:

*** الطريقة الأولى:** وتسمى الإغماس، أو الحمام اللغوي، حين يوضع متعلم اللغة في المجتمع الذي يريد اكتساب وتعلم لسانه. ويبقى فيه المدة الكافية محظوراً عليه استعمال اللغة الأم، أو الاستعانة بالترجمة، مضطراً إلى التواصل والتخاطب باللغة المنشودة.

*** الطريقة الثانية:** وتسمى بطريقة المران على القوالب، بواسطة التمارين المكثفة التي يقرها معلم اللغة.

إن اكتساب اللغة الأم هو وحده الذي يعتبر تطوراً طبيعياً يمر به كل الناس عندما يكونون أطفالاً. ولا أحد يهتم بتعليم الرضع اللغة الأم، ولكننا نداعبهم، ونلاعبهم، ونسليهم ونتسلى معهم، ونواصل معهم، ونشجعهم على الانتباه والتلفظ، ونفرح بما يصدر عنهم من الاستجابات شبه اللغوية التي تتحسن مع الأيام تدريجياً بشكل طردي لا يتوقف إلا عندما يتوقف المنبه أو يضعف. وتصل هذه المحاولات إلى نهايتها وغايتها عندما يصبح الطفل كائناً لغوياً في سن الرابعة أو الخامسة من عمره، قبل التمدرس. أما اكتساب اللغات الأجنبية فما هو بالتطور الطبيعي التلقائي، لأنه مخطط ومبرمج ومراقب ومتابع ويطبق عن إرادة ووعي.

إن تعلم اللغة يمكن الإنسان من التواصل واكتساب العلم والمعرفة والمكانة الاجتماعية ومنافع أخرى متنوعة. وتهتم اللسانيات التطبيقية بهذا الجانب الحيوي في حياة الإنسان وتسعى إلى إكسابه لغة أو لغات أخرى غير اللغة الأم التي قد

تنفع في مجالات لا تنفع فيها اللغة الأم كالتعليم والاقتصاد والأدب والديبلوماسية والصحافة وغيرها، خاصة في هذا العصر عصر العولمة الذي يعتبر أحادي اللغة أميا وإن نال بها أعلى الشهادات.

الهوامش:

1. أنطوان صياح، دراسات في اللغة العربية الفصحى وطرائق تعليمها، دار الفكر اللبناني، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1995، ص175.
2. علم التربية، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1972، ص160.
3. المرجع السابق، ص161.
4. أحمد عبد الكريم الخولي، اكتساب اللغة نظريات وتطبيقات، دار مجدلاوي، عمان، الأردن، الطبعة الأولى، 2013-2014م، ص127.
5. علم اللغة التطبيقي وتعليم العربية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، 1992، ص81.
6. انظر: أحمد عبد الكريم الخولي، اكتساب اللغة نظريات وتطبيقات، مرجع السابق، ص39.
7. معجم علوم العربية، دار الجيل، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 2003، ص468.
8. أحمد سعدي، للسانيات التطبيقية والملكات اللغوية، دار الراية، عمان، الأردن، الطبعة الأولى، 2017، ص70.
9. نايف خرما (بالاشتراك)، اللغات الأجنبية تعليمها وتعلمها، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، عدد126، يونيو 1988، ص34.
10. ن م، ن ص.
11. البناء الموازي، دار توفيق، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى، 1986، ص9.
12. انظر: أحمد عبد الكريم الخولي، اكتساب اللغة نظريات وتطبيقات، مرجع سابق.
13. اكتساب اللغة في الفكر العربي القديم، منشورات ضفاف، ومنشورات الاختلاف، دار الأمان، الرباط، المغرب، الطبعة الثانية، 1435هـ - 2014م، ص17.
14. ن م، ن ص.